شعور الجاحظ الديني

—«×»—

ان مذهباً نبنى اصوله على العقل و يستفيض في عصر استفاضت فيه الخرافات وغرائب الزور فيتفرغ رجاله للتنبيه على الأضاليل والتحذير من الاكاذيب ، ان مذهباً هذا شأنه لايخلو في صدر أمره من تعرض المتعرضين ومعاندة المعاندين ، وقد نجد المعترضين في كل زمن من الازمان ثلاث فرق : فرقة من أصحاب الارتجاع قد جمدت أذهانهم وبلدت طبائعهم ، لا يريدون ان يفهموا ان الدنيا أزمان وان لكل زمان أطواراً ، وان الانتقال من طور الى طور من دلائل الحياة ، فرضوا بميسور حالهم دون ان يخطوا في كل فن من فنونهم خطوة ، فهم يصيحون في وجه كل مصلح ، ثم لاتلبث صيحاتهم ان تتلاشى كما يتلاشى الدخان في أجواز الفضاء .

وفرقة قد أقلق الحسد بالهم ونغّص عليهم لذة الحياة ، فهم يؤلمهم ان ينبغ في ظلال ديارهم نابغ او يبرع بارع ، فيخرجون مكنونهم في إطفاء كل نور يتلألأ وتسكين كل حركة تتقلب .

وفرقة قد جهلت قلوبهم وانحطت مداركهم فهم ضعاف يقاومون ، فصار يطاولون على امل ان يكون لهم في نظر الناس شيء من القوة او شيء من الطول .

ان كل مذهب سواء أكان في الدين أم في الأدب أم في الاجتماع أم في السياسة ، طبيعته إصلاح الفاسد او تجديد العتيق لا بدّ له من ان تتحرش به في مقدمة امره فرقة من هذه الفرق الثلاث : فرقة الارتجاع او فرقة الحسد او فرقة الجهل بيد ان المصلح الواثق بنفسه ، المعتمد على عزمه ، المندفع في سبيله بمضي لطيته دون ان يلوي على شيء لانه يعلم ان للباطل جولة ثم يضمحل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والجاحظ لم يخل في حياته وبعد مماته من تعرض المتعرضين ، اما الذين نقدوه نقداً خالصاً فليس لنا كلام عليهم فسواء أذهبوا مذهبه في الاعتزال أو في الفلسفة أو في العلم أم خالفوا هذا المذهب ، انهم احرار ؛ فلكل رأيه ومعتقده ، ولكن بعض المعترضين لم يقفوا عند حد النقد ، فلم يخل الجاحظ في حياته من حسد الحساد ، انكم لتذكرون كيف كانوا يتعقبونه في أواخر ايامه اي في فالجه ، ملتمسين في كلامه لفظاً مضطرباً او تأليفاً سيئاً او نظاماً مقطعاً ، ومغضين على كل محمود من هذا الكلام ، وليس هذا من النقد في شيء وانما اصل الامر في النقد ان ننظر الى جهتي المحاسن والمساوئ فندل على هذه المحاسن حتى يزداد شعورنا بها ، وننبه على هذه المساوئ حتى نصلح أذواقنا فالاقتصار على ذكر المذموم من كلام المؤلف دون التفرغ لبيان المحمود من هذا الكلام لا يخلو من شيء نسميه الحسد ، والجاحظ كان محسوداً في حياته وقد أشار الى هذا الامر في مقدمة كتابه « المحاسن والاضداد » .

والحسد مستحكم في البشر سواء فيه العالم والجاهل ولا يقعن في خلد احد ان العلم يهوّن من خطبه ، قال الاستاذ (ريشه) في تصويره اخلاق العلماء[1] :

« العلماء حسّاد لانهم بشر فهم لا يستطيعون ان ينظروا بعين الرضا الى تكريم يكرّمه زميل من زملائهم او الى لقب يحصل عليه او الى حظوة يحظى بها او الى غير ذلك من رتب تتساقط عليه تساقط الوابل وكلما كان العلم الذي ينصرف اليه هذا الزميل قريباً من علمهم كلما اشتد الحسد ، فالفلكي لا يحزنه الشرف الذي يتناهى الى النباتي ولكنه قد يجد ان الشرف الذي يحصل عليه فلكي آخر قد لا يستحقه » .

قلت : لم يقف المتعرضون للجاحظ عند حد النقد وانما أحبوا ان يثلموا من شعوره الديني فلم تجد طائفة منهم في كلامه الاجهالات والا ضلالات ولقد ذهبوا في ذلك مذهباً أبعد فاستكثروا تسميته انساناً وعدّوا هذه التسمية ذنباً لا يغفر والتمسوا له شبيهاً من أصناف الحيوان فلم يجدوا أصلح من الخنزير .

فقد تعرّض له ابو منصور البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق فرد عليه في بعض آرائه في الفلسفة والتوحيد ثم نسبه الى الشعوبية والى السمرقة مما لا نجد حاجة الى ذكره

(١) كتاب العالم (ص ٢١) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في مثل هذا المقام وانما نشير الى هذه العبارة [١] :

« ولو عرفوا جهالانه في ضلالانه لاستغفروا الله تعالى من تسميتهم اياه انساناً ، فضلاً عن ان ينسبوا اليه احساناً » .

او الى العبارة الآتية [٢] :

« ومن الفخر بالجاحظ سلمناه اليه ، قول اهل السنة في الجاحظ كقول الشاعر فيه :

لو يمسخ الخنزير مسخاً ثانياً ما كان الا دون قبح الجاحظ

رجل ينوب عن الجحيم بنفسه وهو القذى في كل طرف لاحظ

ان مثل هذا الكلام يمرّ به مرّ الكرام ، فاذا لم يكن الجاحظ انساناً فمن الانسان ، والصحيح ان الجاحظ جاوز أفق البشرية وحلّق في جوّ قد لا يصل اليه كل واحد من الناس .

وكما تعرّض له البغدادي فقد تعرّض له ابن قتيبة فثلمه في دينه فقال [٣] :

« ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين فاذا صار الى الرد عليهم تجوز في الحجة كأنه انما أراد تنبيههم على مالا يعرفون وتشكيك الضعفة من المسلمين وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث يريد بذلك استمالة الأحداث وشرّاب النبيذ و يستهزئ من الحديث استهزاء لايخفى على اهل العلم كذكره كبد الحوت وقرن الشيطان وذكر الحجر الأسود وانه كان ابيض فسوّده المشركون وقد كان يجب ان يبيضه المسلمون حين اسلموا ويذكر الصحيفة التي كان فيها المنزل في الرضاع تحت سرير عائشة فأكلتها الشاة واشياء من احاديث اهل الكتاب في تنادم الديك والغراب ودفن الهدهد أمه في رأسه وتسبيح الضفدع وطوق الحمامة واشباه هذا مما سنذكره فيما بعد ان شاء الله .

وهو مع هذا من اكذب الامة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل » .

والغريب ان ابن قتيبة عاب الجاحظ بقصده للمضاحيك والعبث وهو نفسه من الذين قصدوا لهذه المضاحيك ولهذا العبث حتى قال في مقدمة كتابه عيون الاخبار :

(١) الفرق بين الفرق (ص ١٦٠) .

(٢) » » (ص ١٦٢) .

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص ٧٢) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« ولم اخله (اي لم يخل كتابه) من نادرة طريفة وفطنة لطيفة وكلمة معجبة أخرى مضحكة لئلا يخرج عن الكتاب مذهب سلكه السالكون وعرض اخذ فيها القائلون . ولأروح بذلك من القاريء من كد الجد واتعاب الحق فان الاذن مجاجة وللنفس حمضة » .

وقال في مقام آخر من هذه المقدمة :

« واذا مرّ بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة اوفرج او وصف فاحشة فلايحملنك الخشوع او التخاشع على ان تصعّر خدك وتعرض بوجهك فان اسماء الاعضاء لاتؤثم وانما المأثم في شتم الاعراض وقول الزور والكذب واكل لحوم الناس بالغيب » .

هذا ماقاله ابن قتيبة نفسه وابد قوله باحاديث الرسول وبكلام بعض الخلفاء الراشدين فلِمَ سلك هذا المسلك وعاب الجاحظ بسلوكه اياه واذا كان المأثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب واكل لحوم الناس بالغيب فالجاحظ قد عرضت عليكم انماطاً من نقده العلمي فأظن انه ما شتم عرض ارسطاطاليس لما تعرض له ، واظن انه كان يتقذر من قول الزور والكذب وقد رأيتم كيف كان يدل على توليد الكذابين وعلى غرائب الزور من دون ان يأكل لحومهم بالغيب .

* * *

وكان ابن ابي دواد يقول في الجاحظ [1] :

« انا اثق بظرفه ولا اثق بدينه » .

وكلام ابن ابي دواد في مثل هذا المقام فيه بعض النظر فان الجاحظ كان منحرفاً عنه ملازماً لعدوه ابن الزيات .

ومثل هذا قول ابن ابي دواد له لما جيء به مقيداً :

« قبحك الله ما علمتك الا كثير تزويق الكلام وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر » .

وقال ابن ابي الدنيا المحدث [2] :

« حضرت وليمة حضرها الجاحظ وحضرت صلاة الظهر فصلينا وما صلّى الجاحظ

(١) طبقات الادباء للانباري (ص ٢٥٨) .

(٢) تاريخ ابن عساكر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وحضرت صلاة العصر فصلينا وما صلى الجاحظ فلما عزمنا على الانصراف قال الجاحظ لصاحب المنزل : اني صليت لمذهب او لسبب أخبرك به ، فقال له : (او قيل له) ما أظن ان لك مذهباً في الصلاة الا تركها » .

تلوا الجاحظ في دينه وجرّدوه من الشعور الديني ، فلنجتهد في مجلسنا هذا في التنقيب عن بعض مواضع من كلام الجاحظ ظهر فيها هذا الشعور الذي سلخوه منه الظهور كله ولقد ظهر في مقام علمي لا متعلق للدين به ، ولو كتمه الجاحظ لما كان عليه مطعن من المطاعن فانه في باب علم لا في باب دين ولكن هذا الشعور أبى الا ان يفيض على جنبات كلامه ، واذا كان المرء مأخوذاً بظاهر عقيدته لا بباطنها فليس في ظاهر عقيدة الجاحظ مغمز من المغامز أما الباطن فما نحاول مكاشفته فلنا ظاهر الجاحظ ولله باطنه .

قال زياد لاهل العراق لما قدم والياً عليهم[1] :

اني لو علمت ان احدكم قد قتله السل من بغضي لم اكشف له قناعاً ولم أهتك له ستراً حتى يبدي صفحته لي !

وليس من المستسهل ان نعرف عقيدة الرجل على حقيقتها فقد يكتم المرء غير ما يظهر وقد يظهر غير ما يكتم .

مرة ينظر الى الحمام كيف يعدّ الذكر والانثى العش لولدهما وكيف ينقلان القصب ويشققان الخوص وينسجانه نسجاً مداخلاً وكيف يتخذان موضعاً للولد ويصطنعانه بقدر جثمان الحمامة وكيف يحفظان البيض ويمنعانه من التدحرج ، وكيف يتعاوران الافحوصة وينفيان عنها طبيعتها الاولى ويحدثان لها طبيعة أخرى على مقدار من البرد والسخانة والرخاوة والصلابة وكيف تضع الانثى البيض في هذه الافحوصة وكيف يتعاقب الذكر والانثى الحضن ويتعاورانه ، وكيف ينصدع البيض عن الفرخ فيعلّمان الفرخ الغذاء ويعينانه عليه وكيف يزقانه باللعاب ثم بالحب والماء على مقدار قوته وكيف يمنعانه بعض المنع بعد أن يطيق اللقط وكيف يفطمانه فطماً مقطوعاً مجذوذاً بعد ان يعلما ان اسبابه قد اجتمعت وكيف ينفيانه اذا بلغ لنفسه منتهى حاجته وسألها الكفاية وكيف ينزعان منهما تلك الرحمة له وينسيان ذلك العطف عليه ، فلا يروحان اليه ولا يغدوان عليه .

(١) العقد الفريد (الجزء الاول ص٥) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ينظر الى مجامع هذه الحكمة فلا يسعه الا التسبيح لمن أودع المعرفة هذا الذكر والانثى وألقى اليهما الإلهام وبسط عليهما ظل الهناء وجعلها ضياء لمستضيء وراشداً لمسترشد فيقول [١] :

« فسبحان من عرّفها وألهمها وهنأهما وجعلها دلالةً لمن استدل ومخبراً صادقاً لمن استخبر ذلكم الله رب العالمين » .

ومرةً ينظر الى أصناف الحيوان فيتدبر كيف تبيض في صدع الصخر وأعالي الهضاب وكيف تبيض في الأجحرة وكيف تلد ولا تبيض ولا ترضع ولا تلقم وكيف تبيض وترضع وكيف تبيض في أوكارها في عرض مقاطع الجبال وكيف تبيض في البيوت في اصول أجذاع السقف وكيف لا تبيض من الجبال الا في الوحشي منها والا في اسحقها وأبعدها عن مواضع اعدائها وكيف تتخذ بيوتها في عرض شطوط الانهار والسواقي وكيف لاتجثم على بيضها وكيف لا تزق ولا تلقم ولا تلحم ولا تحضن ولا ترضع وكيف تزق وتحضن وتحتاج الى ماتغذو به ولدها .

ينظر الى هذا كله فيستدل به على حسن صنع الله واحكامه وتدابيره [٢] .

وحيناً ينظر الى الخنافس كيف يسقط الى المقابس انها تجلب الرزق وان دنوها دليل على رزق حاضر من صلة اوجائزة اوربح اوهدية او حظ وكيف تدخل في قمص الناس فتنفذ الى سراويلاتهم فلا يقولون لها قليلاً ولا كثيراً وكيف يدفعونها ببعض الرفق . وينظر الى الذباب الكبير الشديد البطش الجهير الصوت كيف كانوا يحتالون في صرفه وطرده اذا اكربهم بكثرة طنينه وزجله وهماهمه ، وكيف صاروا يعتقدون انه مبشر بقدوم غائب وبرء سقيم فصاروا اذا دخل منازلهم وأوسعهم شراً لم يهجه احدمنهم .

ينظر الى هذا فيرى في أضعافه قدرة خالق يمدّ في الآجال مرة ويقصّر في الاعمار مرة ويهيء لكل واحدة منها سبباً فلا يسعه الى الاعتراف بهذه القدرة فيقول :

« واذا أراد الله عز وجل ان ينسيء في اجل شيء من الحيوان هيأ لذلك سبباً كما انه اذا أراد ان يقصّر عمره هيأ له سبباً فتعالى الله علواً كبيراً » .

(١) كتاب الحيوان الجزء الثالث ص٤٧ .

(٢) « « السابع ص١٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولقد ظهر هذا الشعور في قوله [١] :

« اعلم رحمك الله تعالى ان الله عزّ وجل قد أضاف ست سور من كتابه الى اشكال من أجناس الحيوان الثلاثة منها مما يسمونها باسم البهيمة وهي سورة البقرة وسورة الانعام وسورة الفيل وثلاثة مما يعدون اثنتين منها من الهمج وواحدة من الحشرات فلو كان موقع ذكر هذه البهائم وهذه الحشرات والهمج من الحكمة والتدبير موقعها في قلوب الذين لا يعتبرون ولا يفكرون ولا يميزون ولا يحصلون الامور ولا يفهمون الأقدار لما أضاف هذه السور العظام الخطيرة الشريفة الجليلة الى هذه الامور المحقرة السخيفة والمغمورة المقهورة ولأمر ما وضعها في هذا المكان ونوّه باسمائها هذا التنويه وانا ذاكر من شأن الضفدع من القول ما يحضر مثلي وهو قليل في جنب ما عند علمائنا ، والذي عند علمائنا لا يحسن في جنب ما عند الله تبارك وتعالى » .

وظهر شعوره الديني في غير هذه المواطن . فاذا أطنب في ذكر العظيم الجثة من الحيوان فلا يطنب في شيء من ذلك لعظم جثته وانما يلتمس ما كان اكثر أعجوبة وأبلغ في الحكمة وأدل عند العامة على حكمة الرب [٢] .

وبلغ من حرصه على الدين انه رأى ان الخطأ في الدين أضر من الخطإ في كل علم من العلوم فقال في كلامه على الترجمة في عصره وعلى شروط هذه الترجمة وعلى خطإ المترجم [٣] :

« والخطأ في الدين أضر من الخطإ في الرياضة والصناعة والفلسفة والكيمياء وفي بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم » .

وهو يجد كتب الله تعالى أنفع وأشرف من كتب الاوائل وما اشتملت عليه من عجيب حكمة ومن سيرة ، فال [٤] :

« واكثر من كتبهم نفعاً وأشرف منها خطراً وأحسن موقعاً كتب الله تعالى التي فيها

(١) كتاب الحيوان (الجزء الخامس ص ١٥٢) .
(٢) » » » » » » ٤٩
(٣) » » » الاول » ٣٩
(٤) » » » » » » ٤٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الهدى والرحمة والاخبار عن كل حكمة وتعريف كل سيئة وحسنة » .

وقد علمتم ان الزندقة كانت مستفيضة في عصر الجاحظ ومرّ بكم ان من الذين اتهموا بهذه الزندقة حمّاد الراوية وقد عرّض به حماد ابن الزبرقان بأبيات ذكرت في محلها منها :

وحبوت من زعم السماء تكونت والارض خالقها لها لم يمهد

وقد قال الجاحظ بعد هذا الشعر : فليس يقول احد ان الفلك بما فيه من التدبير تكوّن بنفسه ومن نفسه .

وتعرّض الجاحظ لجماعة من الذين اتهموا بالزندقة واستنكر استفاضتها على نحو ماتبين لكم ذلك في كلامنا على عصره اذ قال :

« وقد ترك هذا الجمهور الاكبر والسواد الاعظم التوقف عند الشبهة والتثبت عند الحكومة جانباً وأعرضوا عنه صفحاً فليس الا : لا أو نعم ، الاّ ان قولهم : لا ، موصول منهم بالغضب وقولهم : نعم ، موصول منهم بالرضى وقد عزل الحق جانباً ومات ذكر الحلال والحرام ورفض ذكر القبيح والحسن » .

ان هذا كله يدلنا دلالة واضحة على ان الجاحظ لم يضعف شعوره الديني فان نسبته الى الجهالات والضلالات وان الشك في دينه واتهامه بالكفر والنفاق كل هذا لا يخلو من تحامل ظاهر وأظن أنهم ماطعنوا فيه هذا المطعن الا لمخالفته اياهم في اصل الدين فان الرجل يستند في تفسير الآيات وتأويل الاحاديث الى عقله .

في ٢ أيار سنة ١٩٣١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net